وزارة الثقافة

العربي في حروبه

محمود زايد

برنامج الحفاظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

العربيّ في حروبه

تأليف: محمود زايد

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٧

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: محمود زايد
اسم الكتاب: العربي في حروبه
الطبعة الأولى: ١٩٤٧

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - حنين عِناية
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
صورة الغلاف: لوحة لداود زلاطيمو

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

العربيّ في حروبه

الغلاف الأصلي للكتاب

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

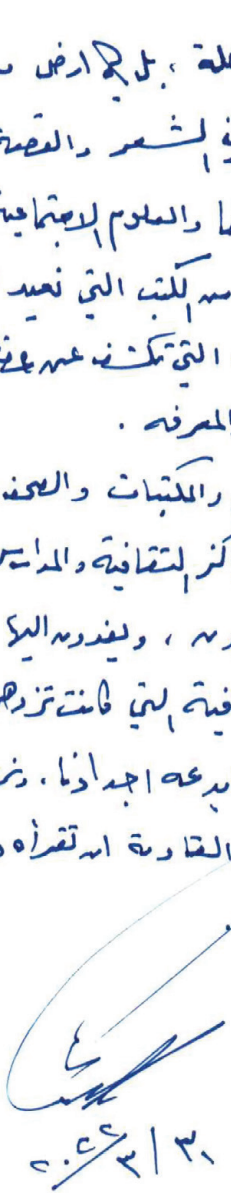

تقديم الكتاب

أيها الطالب العربي الكريم:

يسرني أن أقدم لك هذه الصفحات المشرقة، من تاريخ قومك الحافل بألوان البطولة، في كتاب «العربي في حروبه». وهو الحقلة الثالثة من سلسلة «القصص التاريخية»، وما هي إلا قليل من كثير من صفحات خالدة، ستظل شواهد على ما قام به أجدادك من جليل الأعمال التي بوأتهم المحل الأسمى في العالم المتمدين. وإنك لجدير أن تفاخر بأولئك النفر الذين جاهدوا فأخلصوا جهادهم، وحكموا بين الناس فعدلوا، ولم تزدهم انتصاراتهم الرائعة إلا تواضعًا وتمسكًا بإيمانهم القويم، واستعدادًا للعمل على تحسين أحوال الشعوب.

وضعت لك هذا الكتاب بأسلوب قصصي مشوق، ولغة سهلة قدر المستطاع، فأمل أن تقتدي بأبطال قومك الخالدين.

وإن كنت قد قدمت لك شيئًا تفيد منه، فذلك أقل الواجب؛ والله يهدي إلى سواء السبيل.

اللد ١٠ رمضان سنة ١٣٦٦ هـ

٢٨ يوليه سنة ١٩٤٧ م

معركة ذي قار

(١) انتقام

كان زيد بن عدي كاتبًا عند كسرى ملك الفرس، يحبه كسرى، ويغمره بعطفه، ويحقق له رغائبه؛ لكن زيدًا لم يشعر بالسَّعادة، إذ كان يفكر في أمر يحتاج إلى عناية وتدبير. فقد قتل النعمان ملك الحيرة أباه عديًا، فأقلقه أمر الانتقام لأبيه. وملك عليه تفكيره.

وقضى زيد أيَّامه ولياليه وهو يدبر الخطط لقتل النعمان، الذي نصبه كسرى ملكًا على الحيرة، خلفًا لأبيه المنذر، وفضله على باقي إخوته، وخصه بحبه.

ومال زيد إلى الحيلة، وأنتهز رغبة كسرى في تزويج بعض أهله، وزيَّن له أن يُصاهر النعمان، فقد كانت بناته على جانب عظيم من الجمال والأدب والفصاحة، فبعثه كسرى مع رسول خاص إليه.

وعرض زيد الأمر على النعمان، فأعتذر عن إجابته إلى طلبه فسر زيد، وعاد إلى كسرى يحمل إليه رفض النعمان. فثار كسرى، وغضب، وبعث إلى النعمان يأمره أن يسير إليه على جناح السرعة.

(٢) نهاية النعمان

أدرك النعمان أن كسرى سينتقم منه. فقد عرفه الناس ظالمًا، وخافوا بطشه، فالتجأ إلى قبائل العرب لتجيره وتحميه من كسرى، فردته عنها، لعجزها عن مقاومة الفرس. فسار إلى هانئ بن مسعود الشيباني، وطلب منه أن يجيره. وكان هانئ سيد قبيلته، فأشار على النعمان أن يأتمنه على دروعه وأهله، وأن يسير إلى كسرى، وأكد له أنه سيحافظ على الدروع، وأنه سيحمي أهله كما يحمي زوجته وبناته.

فدفع النعمان إلى هانئ دروعه، واستودعه أهله، وودع أصحابه، وسار إلى كسرى. فأمر هذا بسجنه، فأصابه الطاعون في السجن، وقضى نحبه.

(٣) الشهامة العربية

لم يكتف كسرى بالقضاء على النعمان، وحرمان أهله منه، بل أراد يأخذ دروعه لنفسه، وحين نمي إليه أنها عند هانئ بعث إليه يطلبها منه.

ولم تكن عادة العربي أن يفرط في الأمانة، وأن يخون وعده فأبى هانئ أن يُسلّم الدروع، ولو بذل في سبيل ذلك حياته. فغضب كسرى، وصبر حتى قدم هانئ مع قومه إلى ذي قار، وأرسل إليه يطلب منه أن يختار واحدة من ثلاث:

أن يُسلم دروع النعمان. أو أن يرحل مع قبيلته من ديارهم. أو أن يُحارب جيوش كسرى: فقعد هاني مجلسًا للتشاور، فولوا أمرهم حنظلة بن ثعلبة العجلى، فاختار الحرب، وقرر الجميع أن يَصْمُدُوا لجيوش كسرى، فأما أن يموتوا شرفاء وإما أن يُحرزوا النصر فيسجلوا لأنفسهم شرفًا عظيمًا.

وبعث كسرى جيشه إلى ذي قار، فوزع هانئ دروع النعمان بين جنده، وخطب قومه قائلًا: «إن الصبر من أسباب الظفر، المنية، ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، يا قوم جدوا فما من الموت بد».

وتقدم حنظلة بن ثعلبة، وقطع وضينَ راحلة امرأته ووضن رواحل باقي النِّساء، وطلب من الرجال أن يُدافعوا عن زوجاتهم وأهليهم.

(٤) النصر

برهن العرب في هذه المعركة على شجاعتهم، وأظهروا خبرة فائقة في أمور الحرب، وفنون القتال. فقد أعدوا كمينًا للفرس، لينقض عليهم في أثناء المعركة.

وبدأت النساء تحض الرجال على الاستماتة في القتال، واشتبك الجيشان في عراك عنيف، لا هوادة فيه ولا رحمة، فتضعضعت صفوف الفرس، وتخاذلت أمام حملة العرب الصادقة.

وفي الوقت المناسب انهزمت قبيلة عربية كانت تحارب مع الفرس، وبرز الكمين، وأنقض رجاله عليهم، فانهزم جند كسرى وكان هذا نصرًا كبيرًا للعرب على دولة الفرس.

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا النصر، وكان قد بعث رسولًا للناس. فسر كثيرًا وقال: «هذا هو اليوم الذي انتصفت فيه العرب من العَجَم، وبي نُصروا».

معركة بدر

(١) إلى المدينة

يُدافع الرجل العظيم عن عقيدته إلى آخر نسمة من حياته، فيصبر على الأذى، ويتحمل المكروه في سبيل نشرها والدفاع عنها. لا تفتر همتُه. ولا يضعُف نشاطه، ويزداد حماسه كلما ازدادت مقاومة الناس له، ومن أعظم من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم! صبر على أذى قريش له، ولقى في سبيل دعوته إلى الإسلام صعابًا كثيرة، ولكنه كان مؤمنًا بعدالة دعوته إلى دين الحق والنور.

جربت قريش كل وسيلة لتجعله يكف عن تبليغ دعوته، فما ازداد إلا حماسًا وإيمانًا، هددته، فلم يلق بالًا للتهديد وحاولت أن ترضيه بالمال. فأعرض عنه.

وكانت قريش يشتد حنقها كلما دخل في الإسلام أحد أبنائها، فتضاعف من إيذائها للرسول وأتباعه؛ إذ خافت قوة الإسلام، حين انتشر في المدينة. فبدأ المسلمون يهاجرون من مكَّةَ خوفًا على دينهم وأنفسهم، ولم يبق فيها إلا نفر قليل منهم فيهم الرسول وأبو بكر.

وشعر أهل قريش بهجرة المسلمين، فاجتمع رؤساؤهم في دار الندوة، وقرروا أن يبعثوا من يقوم بقتل الرسول وانتخبوا من كل قبيلة شابًا يشترك في قتله، ليعجز أهل النبي عن الأخذ بثأره.

(٢) خيبة أمل

أمـر اللـه نبيـه أن يهاجـر مـن مكـة إلى المدينـة، وكان إلى ذلـك الحـين لا يعلـم مـا دبـره الكافـرون لـه، فأخـبر أبـا بكـر عـن عزمـه عـلى الهجـرة إلى المدينـة، واتفقـا عـلى موعـد فيـما بينهـما، وكان الموعـد في الليلـة التـي اختارهـا أهـل قريـش لقتلـه.

وليلـة الهجـرة، أحـاط رجـال قريـش بـدار النبـي، فأمـر النبـي عليًـا أن ينـام في فراشـه، ثـم خـرج مـن بيتـه وهـو يقـرأ: «وَجَعَلْنَـا مِـن بَـيْنِ أَيْدِيهِـمْ سَـدًّا وَمِـنْ خَلْفِهِـمْ سَـدًّا فَأَغْشَـيْنَاهُمْ فَهُـمْ لَا يُبْـصِرُونَ» فأعماهُـمُ اللـه عنـه، فسـار حتـى لَقـي أبـا بكـر، وخرجـا معًـا إلى غـار ثـور.

وعلمـت قريـش، فثـارت، وبعثـت أبناءهـا وراءهـما، ولكـن اللـه أضلهـم، وحـال بينهـم وبينـه، فمكـث في الغـارِ ثلاثـة أيـام مـع صاحبـه، ثـم توجهـا إلى المدينـة، وكان أهلهـا ينتظرونـه بفـارغ الصـبر، فخرجـوا لاسـتقباله، وتنافسـوا في ضيافتـه، وأراد كل منهـم أن يُـشرف الرسـول بيتـه، وكانـت النسـاء ينشـدن مـع الأطفـال.

طلـع البـدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشـكر علينا ما دعا الله داع

أيهـا المبعـوث فينا جئت بالأمر المطاع

(٣) في المدينة

كان الأوس والخزرج في المدينة، في نزاع دائم فقد دخل اليهود بين القبيلتين، وعملوا على انشقاقهما فلما جاء النبي وحد بينهم، وآخى بين المهاجرين وبينهم، وسمّوا الأنصار، لأنهم نصروه.

حكم الرسول بينهم بالعدل، وبنى لهم مسجدًا تقام فيه الصلاة، وكان يحل مشاكلهم بحكمة ودراية. فصاروا يتسابقون إلى خدمته، وتنفيذ أوامره، ونشر دينه.

أما قريش، فقد أصبحت تخاف قوة الإسلام المتزايدة. وحقدت على الأنصار لقبولهم النبي بينهم.

فازدادت مقاومتهم للرسول، وأصبحوا حجر عثرة في طريق الإسلام، وأدرك الرسول ضرورة الاستعداد لمقاومة قريش.

(٤) إلى بدر

كان أهل مكة يعتمدون في حياتهم على التجارة، فتسير قوافلهم إلى الشام تحمل صادرات الجزيرة العربية ومعها السلع المختلفة، فيصيبون من تجارتهم أرباحًا كثيرة.

وفكر النبي في طريقة لإخضاع قريش، وليعوض على المهاجرين ما فقدوه من أموال في أثناء هجرتهم فبعث من يتعرض طريق قوافلهم، لعرقلة سيرها.

وحدث أن خرج أبو سفيان على رأس قافلة كبيرة إلى الشام، فقرر النبيُّ أن يهاجمها حين تعود، غير أن أبا سفيان علم بذلك، فسلك طريقًا أخرى بقافلته، وبعث من يخبر قومه ويستنجد بهم.

أثار الخبر أهل قريش، فهب رجالها للدفاع عن قافلتهم، وتجمع جيشهم، ووراءه النساء يُحرضن أفراده على قتال المسلمين، لكنَّ القافلة رجعت سالمة، وأراد الجيش أن يرجع إلى مكة. غير أن أبا جهل، حملهم على السير إلى بدر، وإقامة الولائم حتى تتحدث عنهم العرب.

وعلم صلى الله عليه وسلّم بزحف قريش، فجمع أصحابه لاستشارتهم في أمر القتال، فوجدهُمْ على أتم استعداد.

وأجابه سعد بن معاذ، زعيم الأنصار قائلًا: «يا رسول الله، قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا، فامض لما أمرك الله؛ فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته، لنخوضه معك»

فأشرق وجهه عليه السلام، وسر كثيرًا، وأمر أصحابه أن يسيروا إلى بدر، وأشار عليه أحدهم أن يتقدم حتى أقرب مكان للماء، من جيش قريش، فتقبل الرسول نصيحته، فقد أدرك فائدة رأيه، فتقدموا إلى أقرب مكان للماء، وخربوا غيره من الآبار وبنوا عليه حوضًا يستقون منه.

ثم أقبل الليل، ونشر الظلام رداءه على الكون، فبنى المسلمون للرسول عريشًا لينام فيه، فقضى ليلة يدعو الله أن ينصره على أعدائه.

(٥) قبيل المعركة

أضاء النور الكون، واستعد الجيشان: ثلاثمائة مسلم أضاء الإسلام قلوبهم، فأشرقوا بنوره، وزادهم شجاعة وقوة، ليس لهم مطمع في مال أو جاه، يحاربون من أجل إعلاء كلمة الله؛ وألف محارب من قريش، ما تقدموا إلا ليدافعوا عن قافلتهم، فعندما سلمت القافلة، انقسموا على أنفسهم؛ قسم أرادَ الرجوع وكاد يغلب القسم الآخر الذي أرادَ أن يحارب، غير أن أبا جهل حرضهم على القتال، فلم يعارضوه لئلا يقال إنهم جبناء يخافون الحرب.

أما نتيجة المعركة المنتظرة، فهي على جانب عظيم من الأهمية، فالإسلام ما زالَ فتيا، ورجاله قليلون، وهزيمتهم فيها القضاء على الإسلام ودعاته، وإذا وقعوا في قبضة قريش، كان جزاؤهم التعذيب والاستعباد.

أما إذا انتصروا، فسوف ينتشر الإسلام بسرعة عظيمة ويكفي عندئذ، أن يتخلص المسلمون من ألد أعدائهم.

(٦) المعركة

عـرض الرسـول جيشـه، ونظـم صفوفـه، وهـو يحرضهـم عـلى القتـال، ثـم بـدأت المعركـة، وخـرج ثلاثـة مـن جيـش قريـش يطلبـون المبـارزة، فقتِـل اثنـان منهـم، وجـرح الآخـر، وانتهـت المبـارزة، واشـتبك الجيشـان، فقـال الرسـول يشـجع أصحابـه.

«والـذي نفـس محمـد بيـده، لا يقاتلهـم اليـوم رجـل فَيُقتـل صابـرًا محتسـبًا، مقبـلًا غـير مدبـر، إلا أدخلـه اللـه الجنـة»

سـمعه فتـى مـن المسـلمين، وكانـت بيـده ثمـرات، فَقَـذَفَ بهـا عـلى الأرض قائـلًا: بـخ، بـخ! فـما بينـي وبـين أن أدخـل الجنـة إلا أن يقتلنـي هـؤلاء ثـم اندفـع كالسـهم بـين صفـوف المسـلمين، وقاتـل حتـى قتـل.

ثـم أمـر النبـيُّ، فَجمـع القتـلى ودفنـوا، وسـيق الأسرى إلى المدينـة، وعُوملـوا معاملـة لم يحلمـوا بهـا، فقـد أوصى النبـي المسـلمين أن يحسـنوا إليهـم.

وافتـدى قسـم منهُـمْ أنفسـهم بالمـال، وعجـز القسـم الآخـر عـن دفعـه لضيـق ذات يـده، فدفـع النبـي لـكل واحـد يعـرف الكتابـة عـشرة مـن غلـمان المدينـة، وطلـب منهـم أن يعلموهـم القـراءة والكتابـة، لأن الإسـلام نصـير العلـم، وعـدو الجهـل.

وهكـذا نـصر اللـه المسـلمين عـلى قلـة عددهـم، وسـمعت قبائـل العـرب بالنـصر، فأخـذت تدخـل في الإسـلام.

معركة اليرموك

(١) سيف الله

بعد أن تولى سيدنا أبو بكر خلافة المسلمين، أخذ يُحارب الذين ارتدوا عن الإسلام، حين سمعوا بوفاة النبي، وسميت تلك الحروب حروب الردة؛ وقد أظهر أنه خليفة حازم، فقد تمسك بأمور الدين، وأبى أن يتغاضى عن أقل إخلال بها.

ولمع في تلك الحروب، قائد من قواد المسلمين، أسمه خالد ابن الوليد، حارب في الجاهلية والإسلام، فبرهن على مقدرة في ترتيب الجيوش؛ ورسم الخطط الحربية، وقيل إنه خرج من جميع حروبه منتصرًا، فسماه النبي سيف الله المسلول، لشدة بأسه، وتناقلت الألسن أخبار شجاعته، التي ملأت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، فخافه أعداء المسلمين.

قيل إن قائدًا من قادة الروم، وأسمه جورج، برز له في إحدى وقائع الشام، وسأله: «هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء، وأعطاكه، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟»

فقال خالد «لا»

قال جورج: «فيم سميت سيف الله؟»

قال خالد «تابعناه، فقال لي أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين. ودعا لي بالنصر، فسميت سيف الله، فأنا من أشد المسلمين على الكافرين».

(٢) في البادية

أخضعت جيوش أبي بكر المرتدين، وفرغ أبو بكر للفتوح، فوجه الجيوش إلى سورية وفلسطين، لمحاربة الروم الذين كانوا يذلون عرب الشام، ويتخذونهم عونًا لقتال القبائل العربية الأخرى، وسلكت هذه الجيوش طرقًا مختلفة، وكانت تكتسح أمامها قوى الروم في سبيل تحرير إخوانهم، ونشر الإسلام.

وشعر هرقل، ملك الروم، بالخطر المحدق، وخاف كثيرًا، وقرر أن يجمع جيوشه لمحاربتهم في معركة فاصلة.

وبعث أبو بكر كذلك إلى قواده يأمرهم بالاجتماع وعدم التفرق، وطلب منهم أن يحاربوا معًا، وكان خالد بن الوليد عندئذ في العراق، فأمره الخليفة أن يسير بنصف جيشه إلى الشام، وكانت أمامه طرق مختلفة، فاختار طريق البادية.

ولما على جيشه العطش، جاء بعدد من الإبل سقاها حتى ارتوت، فشد أفواهها لئلا تجتر، وقطع مشافرها.

وسار مخترقًا البادية. وكان يذبح كل يوم عددًا من الإبل، ويتناول منها الماء. وبذلك أمن على جيشه العطش، ووصل إلى الشام بسرعة فائقة. وانضم إلى إخوانه، والتقى المسلمون بالروم في اليرموك.

(٣) يوم من أيام الله

كان وجود قائد قدير كخالد ضروريًا، فقد بعث في المسلمين روحًا جديدة، ووقف يحمسهم قائلاً:

«هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده»

وقيل إنه نصب نفسه قائدًا عليهم في اليوم الأول من المعركة، إذ لم يكن الخليفة قد عين قائدًا عامًا للجيش، وعرض على القواد أن يتناوبوا القيادة العامة، فيكون أحدهم في اليوم الثاني، وغيره في اليوم الآخر، فقبل الجميع، وأظهروا تسامحًا وإيثارًا، وإخاء تامًا، ذلك أنهم كانوا يهدفون إلى غاية واحدة وهي نشر الإسلام.

وكانت النساء على جانب عظيم من الإخلاص، رافقن الجنود وكن من أكرم وأنبل نساء العرب، أوصاهنَّ خالد ألا يسمحن لمسلم بالرجوع من ساحة القتال، وأن يضربن من يفر من المعركة، بالعصى والحجارة حتى يرجع.

(٤) الجيشان

كان جيش الروم يفوق جيش المسلمين عددًا، فقد بلغ عدده مائتي ألف مقاتل، وكان مجهزًا بالأسلحة الجديدة. وكان جيش المسلمين لا يزيد على خمسة وأربعين ألف مقاتل.

إلا أن خالدًا قسم جيشه أقسامًا صغيرة، كأقسام الجيش الروماني، ولاحظ خوف المسلمين من كثرة الروم، فظل يشجعهم. أزال مخاوفهم، واطمأنت نفوسهم؛ وحدث أن قال رجل لخالد:

«ما أكثر الروم وأقل المسلمين!» فقال خالد: «ما أقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال».

واتخذ جيش الروم لنفسه مكانًا حصينًا في وادي اليرموك، فكانت بحيرة طبرية ونهر الأردن تحميانه من اليمين، ويحميه من اليسار وادي اليرموك، ومن الخلف سهل الواقوصة.

ولكن ذلك لم يُضعف من عزيمة خالد. قسم جيشه إلى قلب وميمنة وميسرة وأتخذ مركزه أمام جيوش الروم، وجعل البادية وراءه، فحفظ بذلك خط الرجعة.

وكان خالد بصيرًا بفنون القتال، وحركات الجيوش، فأمر الميمنة أن تقوم بحركة التفاف على ميسرة الروم في أثناء القتال.

(٥) رسل المسلمين

كان هرقل، ملك الروم، يخاف المسلمين، فقد أدرك أنهم لا يحبون الحياة، ولا يخشون الموت، ويتسابقون إلى الاستشهاد في سبيل الله، فنصح أصحابه أن يتنازلوا للمسلمين عن نصف الشام، قبل أن يغلبوهم عليها جميعها إلا أن أصحابه عابوا عليه خوفه وأصروا على محاربة المسلمين.

وقبيل المعركة، أرسل المسلمون رُسُلًا يتفاوضون مع العدو فقد اعتادوا أن ينذروا الأعداء قبل إراقة الدماء، وذلك لئلا يتحملوا مسؤولية الحرب.

واستقبل قائد الروم وفد المسلمين، وفرش سرادقه بأغلى أنواع الحرير، وأقبل الوفد وعلى رأسه أبو عبيدة ابن الجراح.

ظن قائد الروم أنه يخيف المسلمين، بما سيرون من ثراء الروم وَتَرَفِهم، ولكنه صدم، حين أبي الوفد أن يفترش الحرير، وقالوا إنهم لا يحبون المترف والمال ورفضوا أن يقبلوا هدايا الروم، ثم عرضوا شروطهم على قائدهم: الإسلام، أو الجزية أو الحرب: فأبى الرومان أن يقبلوا أحد الشرطين الأولين فَرَجَعَ المسلمون إلى إخوانهم، وبات أمر القتال محققًا.

(٦) المعركة

وقف خالد بن الوليد يحث المسلمين على الموت، ذكرهم بالآخرة، ونعيمها الدائم، وأن فيه عوضًا عن زُخرف الحياة الزائل، وأرتفع صوت المقداد بن الأسود، يتلو سورة الأنفال قبل المعركة.

اشتبك الجيشان في قتال عنيف، وارتفعت أصوات المسلمين بالتكبر والتهليل حقًا، كان لذلك اليوم ما بعده، ففيه سيقرر من الغالب، ومن كتب له النصر، سحق خصمه.

فاستمات كل من الجيشين في القتال، واضطر المسلمون في بادئ الأمر أن يتراجعوا لقلة عددهم، أمام جيوش الروم المتراصة.

لكن جيشًا فيه مثل عكرمة بن أبي جهل لا يُغلب، فهو جدير بالنصر والفخر، فقد تقدم هذا البطل حين رأى تراجع المسلمين، وصاح:

«من يُبايِعُ على الموت؟» فالتف حوله أربعمائة فارس من فرسان العرب الاشداء، وصمموا على الاستشهاد في المعركة هجموا هجمة واحدة كالأسود، وشقوا طريقهم في صفوف العدو، فقتلوا عددًا كبيرًا منهم، وقتل أكثرهم وجرح الباقون.

فاستبسل المسلمون في قتالهم، وهجموا على الروم معًا، فزلزلوهم، ونشروا الذعر بينهم، وكان هؤلاء مقيدين بالسلاسل خوفًا من الهرب، فلم يتمكنوا من الفرار، فأعمل المسلمون فيهم سيوفهم، وكتب لهم النصر الحاسم على الروم.

معركة القادسية

(١) تضحية

توجه خالد بن الوليد إلى اليرموك لقتال الروم، وبقي في العراق جيش إسلامي صغير لمحاربة الفرس، وتخليص عرب الحيرة منهم فانهزم في واقعة الجسر؛ عندما أراد المسلمون عبور نهر الفرات، من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية، وكاد الفرس يقتلون جميع المسلمين، لولا أن خبر انقسامهم في المدائن أضعف عزمهم، ودفعهم إلى وقف القتال.

وقد ضرب المثنى بن حارثة الشيباني مثلًا خالدًا في البطولة؛ فقد وقف يحمي جنود المسلمين، وهم يعبرون النهر، فأصابته طعنة شديدة. تركت في جسمه جرحًا بليغًا.

لكن المسلمين انتقموا من الفرس في واقِعَةِ البويب، وثأروا لأنفسهم منهم وقتلوا عددًا كبيرًا.

فأخذ يزْد جرد ملكهم، يجمع الجنود من كل ناحية للقضاء على المسلمين، وصمم على محاربتهم في معركة فاصلة، فبعث المسلمون إلى الخليفة يستنجدون به.

(٢) قيادة الجيش

توفى أبو بكر، رحمه الله، قبيل معركة اليرموك، وتولى الخلافة سيدنا عمر بن الخطاب، وكان قد أوصاه أبو بكر أن يُجهز جيشًا لمحاربة الفرس، فَبَعَثَ عُمر إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية في طلب الجنود؛ وأعلن التعبئة العامة فتسابق المقاتلون إلى المدينة بحماس بالغ.

واستشار عمر الناس في أمر القتال، فوجدهم على أتم استعداد للحرب، فأعلن أنه سيقود الجيش بنفسه، غير أن كبار الصحابة عارضوه. وتشاوروا فيمن يصلح لقيادة الجيش، فوقع اختيارهم على سَعْدِ بن أبي وقاص.

(٣) وصية الخليفة

قضى المثنى نحبه متأثرًا بجراحه، ولكنه مات كما يموت الابطال.

فسار سعد بجيشه، وعدده أربعة آلاف مقاتل، بينهم عدد كبير من أبطال العرب وشجعانهم، وكانت وصية الخليفة له، قد تركت أثرًا عميقًا في نفسه، قال له: «لا يَغْرَنَّك أن قيل خال رسول الله، وصاحب رسول الله. فإنَّ الله عزّ وجلّ، لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، ربهم، وهم عباده؛ يتفاضلون بالعافية، ويُدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي

صلى الله عليه وسلم يلزمه، فالزمه، فايه الأمر. هذه وصيتي لك، إن تركتها ورغبت عنها، حبط عملك وكنت من الخاسرين.»

تلك وصية الخليفة لأحد العشرة المبشرين بالجنة؛ فالمسلمون سواء، لا يرفعهم إلا عملهم، والجهاد فريضة على كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم.

وسار سعد حتى بلغ القادسية، فاتخذها مقرًا لجيشه.

(٤) مفاوضات

أدرك يزدجرد خطر الموقف، فدولته مهددة بالسقوط والخضوع للعرب إلى الأبد، فجمع جيشًا كبيرًا، بلغ عدده مائة وعشرين ألف مقاتل، واتخذ الحيرة مركزًا له.

وأرسل المسلمون وفدًا إلى الملك الفارسي يعرض عليه الإسلام، وإذا رفض فيدفع الجزية، وإن أبى إحداهما، كان ذلك إشارة لإعلان الحرب.

دخل الوفد بقيادة النعمان بن مقرن، على يزدجرد، فنصحهم أن يكفوا عن قتال الفرس. وقال:

«وإني أنصحكم بالكف عن محاربة فارس، ومنازلتها، والوقوف في وجهها، وإذا كان الجهد قد دعاكم، فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكًا يرفق بكم».

فأجابه النعمان بقوله: «نعم، تلك كانت حالتنا، حتى بعث الله فينا رجلًا معروفًا، نعرف وجهه ومولده». إلى أن قال: «فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، أو تسلم فتنجي نفسك، وإلا فالسيف».

ولم يكد ملك الفرس يسمع هذه الكلمات حتى ثار على الوفد، وطرده.

(٥) مع رستم

أيقن يزدجرد ألا مفر من القتال، بعد فشل المفاوضات غير أن قائد جيشه، رستم، خاف المسلمين، وشعر بضيق في نفسه، فبعث إليهم يطلب وفدًا آخر للمفاوضة، فأرسل له سعد بن أبي وقاص، المغيرة بن شعبة.

دخل المغيرة على رستم، وجلس بجانبه على سريره، مرفوع الرأس، فتهامس الحاضرون من الفرس عليه، وقام جماعة منهم وأنزلوه، فخاطبهم بقوله:

«قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أدري قومًا أسفه منكم، إنا معشر العرب، سواء، لا يستعبد بعضنا بعضًا... اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون»

وذهبت المفاوضة أدراج الرياح، ولم يرغب سعد في أن يتحمل تبعة الحرب، فبعث إنذارًا أخيرًا لرستم، فأساء هذا إلى حامله، ولكنه أدرك شدَّة إيمان المسلمين وقوة عقيدتهم، وبقيت كلمات أحد المسلمين

لـه، ثابتـة في سـمعه. قـال لـه: «واللـه لإسـلامكم أحـب إلينـا مـن غنائمكـم، ولقتالكـم بعـد أحـب إلينـا مـن صلحكـم.»

(٦) المعركة

تهيـأ الجيشـان للقتـال، وأمـر سـعد مـن يجيـدون الخطابـة والشـعر، أن يحرضـوا الجنـود عـلى القتـال، وكان يُـشرف عـلى المعركـة مـن مـكان مرتفـع، فقـد كان مريضًـا، وحـال مرضـه دون اشـتراكه في المعركـة، وكان يـوافي الخليفـة بأنبـاء المعركـة.

وأوصى جنـوده وقـواده أن ينتظـروا حتـى يكـبر التكبـيرة الرابعـة، فـإذا سـمعوها، هجمـوا عـلى العـدو، ولم تمـض دقائـق حتـى اشـتبك الجيشـان في القتـال.

أسـتعان الفـرسُ بالفيلـة، فنفـرت منهـا خيـول العـرب، وعرقلـت حـركات الجنـود، فرماهـا رمـاة العـرب بسـهامهم فخففـوا مـن وطأتهـا عـلى الجيـش، وبقـي القتـال مسـتمرًا حتـى أرخـى الليـل سـدوله. فعـاد كل جيـش إلى معسـكره.

ودام القتـال في اليـوم الثـاني حتـى منتصـف الليـل، ولكـن الفيلـة لم تضايقهـم في هـذا اليـوم فقـد جـاء العـرب بالإبـل وجلوهـا وبرقعوهـا، فنفـرت منهـا الفيلـة، وخافتهـا الخيـول، وحمـل العـرب عـلى أعدائهـم حمـلات شـديدة، فقتلـوا منهـم عـددًا كبـيرًا. ومـن أبطـال هـذا اليـوم أبـو محجـن الثقفـي،

والقعقاع، الذي هجم على الفرس ثلاثين مرة، وقتل منهم عددًا كبيرًا.

واستؤنف القتال في اليوم الثالث، فحمل أبطال العرب على الفيلة، وطعن أحدهم فيلًا في عينيه، فولى هاربًا وتبعته باقي الفيلة، فأحدثت فوضى عامة في صفوف الفرس.

وأمتد القتال حتى صباح اليوم التالي، وأشرق النور، وحمل معه النصر للمسلمين، فأشرقت قلوبهم، وشاع البشر في وجوههم، فقد ولى الفرس الأدبار، حين صاح أحد المسلمين:

«قَتَلْتُ رُستَمَ وَرَبِّ الكعبة» وكان هذا نصرًا كبيرًا للعرب، فقد سقطت دولة الفرس في أيديهم.

(٧) الخليفة والنصر

كتب الله النصر للمسلمين، وسقطت دولة الفرس في أيديهم، وظفر عرب الحيرة بحريتهم، وبذلك تحقق حلم رأه رستم في نومه قبل المعركة؛ فقد قيل إنه رأى أعرابيًا يجمع ما في معسكر الفرس.

وعند انتهاء المعركة، بعث سعد رسولًا على ناقة إلى المدينة، ليبشرهم بالنصر.

وكان الخليفة عندئذ، قلقًا، يتحرق شوقًا للوقوف على نتيجة المعركة، وبينما هو سائر خارج المدينة يسأل المسافرين، لمح رجلًا على ناقة قادمًا عليه من بعيد، فانتظر حتى وصل، فاقترب منه وسأله عن

المـكان الـذي جـاء منـه، فأخـبره أنـه جـاء مـن القادسـية وأن العـرب انتـصروا.

وكان الرسـول مسرعًـا في سـيره عـلى ناقتـه، فركـض الخليفـة بجانبـه، واطـمأن عـلى نتيجـة المعركـة، وبقـي يركـض وراءه حتـى وصـلا المدينـة.

لم يكـن الرسـول يعـرف الخليفـة، فعندمـا نـزل، سـأل عنـه فدلـوه عليـه فَدَهـش حـين عـرف أنـه كان يجـري وراءه، وقـال: «فهـلا أخبرتنـي - رحمـك اللـه - أنـك أمـير المؤمنـين» فأجـاب الخليفـة بقولـه: «لا عليـك يـا أخـي» فسـلّمه الرسـول كتـاب سـعد لـه، وأنتـشر الخـبر في المدينـة بسرعـة، فابتهـج النـاس وحمـدوا اللـه عـلى نـصره لهـم.

فتح مصر

(١) دهاء عمرو بن العاص

كان عمرو بن العاص من قواد العرب العظام، الذين أظهروا شجَاعَةٌ فائقة في الحروب. ند به الخليفة أبو بكر لقيادة الجيش الذي وجهه لمحاربة الروم في فلسطين، فأبلى بلاء حسنًا، وبرهن على مقدرة كبيرة في رسم خطط المعارك.

وكان قد اشتغل من صغره بالتجارة، وزار مصر. فتركت في نفسه أثرًا بليغًا، لما فيها من أموال وخيرات، فاستأذن الخليفة عمر بن الخطاب في أن يسير إليها لفتحها، قائلًا:

«إنك إن فَتَحْتَها، كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، أكثر الأرض أموالًا، وأعجزها عن القتال والحروب»

فتردد الخليفة خوفًا على جنوده، ولكن عمرو بن العاص ألح عليه حتى قبل، وبعث معه أربعة آلاف جندي، وطلب منه أن يرجع إن بعث له كتابًا يأمره فيه بالرجوع قبل أن يدخل أرض مصر.

وسار عمرو سنة ٦٣٩ م حتى رفح، فوافاه فيها رسول الخليفة يحمل إليه كتابًا منه، فلم يفتحه حتى وصل العريش من أرض مصر، فقال لجنده:

«أمرني الخليفة أن أرجع إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر، وها نحن دخلناها، فسيروا على بركة الله».

(٢) ظلم الروم للمصريين

كانت مصر قبل الفتح الإسلامي ولاية بيزنطية، تابعة للقسطنطينيَّة؛ غير أن حكم الروم للمصريين كان جائرًا: كانوا يبتزون أموالهم، ويضعون أيديهم على خيرات بلادهم، وحرموهم من وظائف الحكومة، واضطهدوهم لمعتقداتهم الدينية، وحاولوا أن يكرهوهم على قبول مذهب غير مذهبهم، فاستاء الأقباط سكان البلاد، وكرهوا الروم وصاروا يتحينون الفرص من الظلم النازل بهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث كتابًا إلى المقوقس، حاكم مصر القبطي من قبل الروم، يدعوه فيه إلى الإسلام، فرد عليه المقوقس ردًا حسنًا، وبعث له هدية، وأظهر تأييده للدعوة إلى الإسلام.

فعندما علم الأقباط بتقدم المسلمين، فَرِحوا كثيرًا، فقد زحف العرب على حين غرة، وبسرعة فائقة، أدهشت الروم. وكانت أهمية مصر العسكرية والاقتصادية بالغة، إذ تمكنهم من مهاجمة العرب برًا وبحرًا. فأخذوا يستعدونَ للقائهم وردهم عنها.

(٣) إلى حصن بابليون

سلك عمر طريق الساحل في زحفه على مصر. وكان يعد جيشه بالنَّصر، ويحرضهم على الاستماتة في سبيل فتح مصر. ومرَّ بالعريش فافتتحها بسهولة. ثم حاصر الفرما وبلبيس وافتتحهما بعد أن هزم جيوش الروم.

وأبدى الأقباط عجبهم من المسلمين الذين كانوا يحاربون في بلد غير بلدهم وعددهم ضئيل جدًا إذا قورن بعدد الروم.

وأرهبت قوة المسلمين قواد الروم، فصاروا يخشون المسلمين، ويحسبون لهم حسابًا كبيرًا، إذ تقدموا مسافة كبيرة في برهة وجيزة.

أما المقوقس حاكم مصر، فقد تحصن في حصن بابيلون (قصر الشمع الحالي) فتوجه إليه عمرو بن العاص لعلمه أن وقوع الحصن في أيدي المسلمين معناه سقوط مصر، وتقدم إلى أم دنين (وهي قرية على النيل قام مكانها حي الأزبكية في القاهرة) فخرج القائد ثيودور ليرد المسلمين، فهزم والتجأ إلى الحصن.

غير أن عمرًا رأى أن جنوده لا يستطيعون اقتحام الحصن لقلة عددهم - فبعث يستنجد بالخليفة، فبعث له ثمانية آلاف رجل، وعلى رأسهم أربعة من قواد المسلمين الأشداء، وذهب عمرو لملاقاتهم في عين شمس. فتقدَّم قائدُ الرَّوم لقتالهم، فهزموه في واقعة عين شمس، بأن

كمنوا له على جانبية، وفر من نجا من الروم إلى الحصن. فتبعهم المسلمون وحاصروهم.

وكان ذلك زمن فيضان النيل، فغمرت المياه الخندق حول الحصن، مما زاد في صعوبة اقتحامه.

(٤) طلب الصلح

مضى على حصار المسلمين للحصن شهر، وهم عازمون على اقتحامه، مهما كلفهم الأمر، فخاف المقوقس، وأيقن في نفسه أنَّ العرب سيظفرون بالنصر. فبعث رسلًا من عنده تفاوض المسلمين في أمر الصلح. فحبسهم عمرو عنده يومين وثم ودعهما بحفاوة بالغة.

وكان المقوقس قد خاف على رُسُلِه، فسألهم عندما رجعوا، عن حال العرب فقالوا:

رأينا قومًا، الموت أحب إليهم من الحياة؛ والتواضع أحب إليهم من الرفعة؛ ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، لا يُعرف فيهم السيد من العبد. وإذا حضرت الصلاة لم يَتَخَلَّف أحد عنها منهم؛ يغسلون أطرافهم بالماء. ويخشعونَ في صلاتهم».

فدهش المقوقس حين سمع هذا الوصف، ولم يستطع إخفاء علائم الخوف من وجهه، وطلب من المسلمين من يتفاوض معهم. وحاول أن

يُخيف رُسلَ المسلمين، إلا أنه عجز عن ذلك؛ وعرض عليه المسلمون: الجزية، أو الإسلام، أو السيف.

أراد المقوقس أن يُجيب العرب لواحدة من الثلاث، فرفض أصحابه، فقال لهم:

أجيبوني وأطيعوا القوم إلى إحدى هذه الثلاث؛ فوالله مالكم بهم طاقة، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين، لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين».

ولكنهم أصروا على الرفض.

(٥) سقوط الحصن

حاول المقوقس أن يعقد هدنة مع العرب لمدة شهر. ولكن عمرًا رفض، ولم يُعْطِه إلا ثلاثة أيام يتدبر فيها أمره. غير أن الروم حاولوا أن يغيروا على العرب قبل انقضائها. فهزمهم المسلمون. وضيقوا الحصار على الحصن ومن فيه.

فأيقن المقوقس أن الحصن سيقع في أيدي المسلمين، فأعلن عن قبوله لدفع الجزية لعمرو، على أن يوافق إمبراطور الروم القسطنطينية. لكن الإمبراطور وبخ المقوقس. ولم يقر الهدنة، وعزله؛ فانحاز الأقباط إلى جانب المسلمين، وصاروا عونًا لهم على الروم.

وكانت قد مضت سبعة شهور على حصار الحصن، فتقدم الزبير بن العوام، ونصب السلالم على الحصن، وأمر أصحابه أن يُجيبوه إذا

سـمعوه يكـبر، فصعـد، والسـيف في يـده، وكـبر في أعـلى الحصـن، فـردّ عليـه المسـلمون، فظـن الـروم أن الحصـن وقـع في أيـدي المسـلمين، فهربـوا منـه؛ فاقتحـم الزبـير الحصـن، واندفـع العـرب وراءه، فسـلم قائـد الـروم طالبًـا لنفسـه الأمـان، فأمنـه عمـرو.

ثـم واصـل العـرب زحفهـم عـلى الاسـكندرية، ثغـر مـصر، وحاصروهـا فسـلمت لهـم، وعقـد العـرب معهـم صلحًـا يـرضي الطرفـين.

معركة سبيطلة

فتح طرابلس

فتح العرب مصر، وخلصوا أهلها من الظلم النازل بهم، وأحسنوا معاملتهم، فبادلوا العرب المودة، ودخل كثير منهم في الإسلام، واطمأنوا للحكام العرب الذين سعوا إلى ترقية أحوال مصر، بعكس الرُّومِ، الذين كانوا يستغلون مواردها، ويستأثرون بخيراتها.

وسمع سكان شمال إفريقيا من البربر بعدل المسلمين، وسماحة دينهم، فاستنجدوا بهم، ليحرروهم من نير الروم، الذين حكموهم. حكما جائرًا؛ استأثروا بأموالهم واضطهدوهم لتمسكهم بشعائرهم الدينية، وحرموهم من التمتع بخيراتِ بلادهم.

وساءت العلاقات بين حكام إفريقيا والمغرب وبين الإمبراطور، عهد الفوضى والاطراب في القسطنطينية، فأعلن جرجير حاكم إفريقيا وبلاد المغرب، انفصاله عن القسطنطينية، واستبد بالحكم، واتخذ سُبَيْطِلَة جنوبي القيروان عاصمة له.

وكان عمرو طموحًا إلى الفتوح، فاتجه ببصره إلى الغرب بعد فتح مصر، وكان الجندي العربي قد أعتاد على خوض المعارك، فاندفع الجنود مع عمرو إلى برقة وطرابلس حيث كان ظل حكم جرجير متقلصًا، فبدأ ببرقة وافتتحها دون مقاومة، ثم سار إلى طرابلس، فأغلقت في وجهه

أبوابها، وصمم أهلها على المقاومة، وكان يساعدهم وقوعها على البحر، فذلك ييسر لهم أخذ مؤنهم من سفن الروم.

مر شهر، والمدينة موصدة، حتى بَعُد نفر من المسلمين عن معسكرهم ذات يوم قائظ، ويمموا شطر البحر ليبتردوا، يوم فلاحظوا نكوص الماء عن ناحية منها، فدخلوها رابطي الجأش ووصلوا كنيستها، وصاحوا.

الله أكبر! الله أكبر!

وسمع عمرو التكبير، ورأى جنوده في المدينة من مرتفع خارجها، فهجم على المدينة، والروم يمعنون في فرارهم منها إلى البحر؛ وفتحت الأبواب، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وخلف عمرو عقبة بن نافع في برقة وطرابلس. وكر راجعًا إلى مصر فقد بعث له الخليفة ينهاه عن مواصلة الفتح.

(٢) مواصلة الفتح

خلف سيدنا عمر، عثمان بن عفان على الخلافة، فولى عبد الله بن أبي السرح على مصر، فاستأذن عبد الله الخليفة في فتح إفريقيا، مبينا له سهولة الفتح، واستعداد المجاهدين العرب له، وفوائد إخضاع تلك البلاد.

تردد عثمان في بادئ الأمر وخاف نتيجة مثل تلك الحملة، وبعد تفكير طويل، أعلن موافقته، وبعث في طلب الجند، فأسرَعَ العرب إلى

الانضمام لحملة إفريقيا، وأنضم إليهم عدد كبير من أبناء الصحابة، وأبطال العرب.

قاد عبد الله جيشه. وأتجه إلى الغرب حتى برقة حيث انضم إلى عُقبة بن نافع، وواصل زحفه إلى الغرب دون مقاومة. وأحس جرجير بالخطر الداهم، فرتب جيشه، واستعد للقائهم وصدهم عن المغرب.

(٣) في عقوبة

التقى الجيشان عَلَى بُعْد بضعة أميال من سبيطلة إلى الجنوب، في مكان يقال لَهُ عقوبة، وهناك بدأت المفاوضات بين عبد الله بن أبي السرح وبين جرجير، فعرض عبد الله عليه الإسلام أو الجزية أو السيف.

فأبى جرجير أن يقبل إلا الحرب، فاشتبك الجيشان في مناوشات بسيطة، اشتدت، فصارا يتحاربان حتى ظهر كل يوم، ثم يكفان عن الحرب، وينصرف كل منهما إلى معسكره ويعاودان الكرةَ في اليوم التالي.

وقدر جرجير خطر الموقف فأعلن عن جائزة كبيرة لمن يأتيه برأس عبد الله بن أبي السرح، ووعد أن يزوجه ابنته. فَحَذِره ابن أبي السرح، واحتاط للأمر، وصار يتجنب الخطر.

وطال بذلك أمد الحرب، وانقطعت أخبار الجيش العربي عن الخليفة عثمان، فبعث عبد الله بن الزبير إلى إفريقيا، عونًا لابن أبي السرح،

فسار ابن الزبير، القائد المقدام، وقطع برقة طرابلس حتى وافى المسلمين.

(٤) النصر

رأى ابن الزبير أن أمر الحرب سيطول، إذا لم تحدث معركة فاصلة بين الجيشين، وأنكر على ابن أبي السرح تخوفه وحذره؛ فحثّه عَلَى الإعلان عن جائزة كبيرة لمن يقتل جرجير فأعلن ابن أبي السرح ذلك.

وأراد ابن الزبير أن يحتال على النصر، فأشار على ابن أبي السرح أن يَبْعَث نصف جيشه يحارب به الروم حتى الظهر فإذا حان موعد انصراف الجيشين خرج النصف الآخر وانقض على الروم.

وعلم جرجير بالجائزة التي وضعت لمن يقتله، فأخذ يحتاط لنفسه، وخالجه الخوف. ولما التقى الجيشان في اليوم التالي. أشترك نصفُ المسلمين في المعركة حتى الظهر، وهم الروم بالرجوع إلى معسكرهم، فانقض عليهم النصف الآخر.

وشق ابن الزبير الصفوف إلى جرجير، والمسلمون يحمون ظهره، حتى إذا أقترب منه هجم عليه، ولم يترك له فرصة للفرار وقتله. فانهزم الروم، فلحق بهم المسلمون إلى سبيطلة. فسلمت المدينة، وغنم المسلمون أموالًا كثيرة.

وهكذا أصبح المغرب يدين بالطاعة للمسلمين.

معركة شريش أو فتح الأندلس

(١) العرب في المغرب

أتم العرب فتح مصر وبلاد المغرب. ووصل المجاهد الكبير عقبة بن نافع إلى المحيط عند طنجة، وتتابع الولاة العرب على البلاد. وكان والي المغرب في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك، موسى بن نصير. القائد الذي لم يغلب في حروبه.

وأقبل البربر على الدخول في الإسلام بنفوس راضية، وقلوب مطمئنة؛ إذ رأوا ما أتصف به المسلمون من عدل وسماحة خلق؛ وأدركوا أن المسلمين لم يقصدوا المنفعة المادية، فأقبلوا على التطوع في الجيش العربي وحاربوا مَعَ العرب في معارك كثيرة أبلوا فيها بلاء مشكورًا.

وكان يحكم إقليم سبتة، الواقع في المثلث الإفريقي المواجه لإسبانيا حاكم قوطي يدعى يوليان، صالح العرب، حين بعث موسى بن نصير قائده طارق بن زياد لحصاره.

(٢) موسى ويوليان

اتصل يوليان بموسى بن نصير، وشوقه إلى فتح إسبانيا واصفًا له تلك البلاد، وما فيها من خيرات، ووعده أن يُساعد العرب. فوافق عرض يوليان هوى في نفس موسى، وفكر في الأمر جديًا حين وقف على أحوال تلك البلاد.

وكان يحكم إسبانيا عندئذ ملك قوطي يُدعى لذريق. وهو من القوط الغربيين الذين غلبوا الوندال على إسبانيا، واغتصب العرش من أولاد غيطشة الملك الذي سبقه، وأنزل بالشعب أفدح الظلم: اضطهد اليهود، وصادر أموال أكثر الأغنياء، وانصرف مع أعوانه إلى اللهو عن أمور الدولة، وأخذ يزيد الضرائب لتسد نفقات ترفه ولهوه، فضج الشعب بالشكوى منه، وكرهه يوليان لأنه أساء إليه شخصيًا، وتوعده.

فرحب موسى بمساعدة يوليان، وبعث للخليفة، الوليد ابن عبد الملك، يستشيره في فتح إسبانيا، فكتب له الخليفة يقول:

« خضها بالسرايا قبل، حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال».

(٣) إلى الأندلس

لم يكن ركوب البحر من الأمور الجديدة على العرب، فقد كانوا سادة البحر بعد أن فتحوا قبرص وسردينة، وصقلية وجزر البليار. فأعد موسى حملة صغيرة بقيادة طريف تتألف من أربعمائة جندي ومائة فارس. وركب هؤلاء أربع سفن؛ فغزوا ورجعوا مثقلين بالغنائم والاسلاب.

فتشجع موسى حين نجحت الحملة، وتحفز الجند للغزو. فجهز موسى جيشًا يبلغ سبعة آلاف مقاتل، تحت قيادة طارق ابن زياد الليثي،

وأبحرت بهم السفن، ونزلوا عند سفح جبل في الجنوب، سمي بجبل طارق. نسبة له.

وقيل إن طارق أحرق سفنه، لئلا يفكر جنوده بالانهزام، ووقف يخطب قائلًا:

«أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، وأعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرًا ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن، إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة، ولا حماتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس، إلا وأبدأ بنفسي. وأعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلًا، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلًا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفر من حظي...

واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه. وإني عند ملتقى الجمعين، حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق، فقاتله إن شاء الله تعالى؛ فاحملوا معي، فإن هلكت بعده، فقد كفيتُكُمْ أمرَهُ، ولم يُعوزكم

بطل تُسنِدُونَ أموركم إليه. وإن هلكتُ قبل وصولي إليه، فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون.»

تركت هذه الخطبة أبلغ الأثر في جنود العرب. وأيقن الجميع أن لا بد من الاستماتة في القتال لنيل الظفر.

(٤) المعركة

تقدم لذريق للقاء طارق في جيش كثر عدده، ولكن المنازعات كانت تمزقه، وكان أكثر الجند يحملون للذريق الكراهية والبغضاء التي تأصلت في نفوسهم، وأضمر ابنا غيطشة، اللذان اغتصب لذريق ملكهما، خيانته.

وأحس لذريق بالخوف يدب في نفسه، وشعر بموجة من التشاؤم من المعركة تجتاحه، فقد وقف على خلق العربي في حروبه، وإيمانه بالنصر، وعدم اكتراثه لقلة العدد.

ومضت أيام والمناوشات دائرة، حتى اشتبك الجيشان في حرب لا هوادة فيها ولا رحمة في سهل شريش سنة ٧١١م وحمل العرب على خصومهم حملة صادقة، زعزعت صفوف لذريق، الذي كان في أبهة الملك وجلال السلطان. واستبسل الجيشان، وانهزم ابنا غيطشة بالميمنة والميسرة،

فتقهقر القوط، وانهزم لذريق، فلحق به العرب، ووجدوا فرسه الشهباء وعليها سرج من الذهب والياقوت والزمرد. ولم يقفوا لصاحبها على أثر.

وتقدم العرب إلى قرطبة وطليطلة، وباقي إسبانيا حتى جبال البرنيز. فتم لهم فتح إسبانيا، في مدة قصيرة، إلا أنهم عاملوا الإسبانيين معاملة حسنة أكسبتهم محَبَّةَ الشَّعب واحترامه.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان